النفس وراند امانها ونجاتها من فتك الابالسة بل هو تعزيتها الكبرى في آونة المحن. وواسطة تقديسها وتبريرها بما اتاهُ المخلص الرحيم من السلطان السامي العجيب. فاذا مرض احدكم فليستدع الكاهن ليعالج نفسهُ قبل جسدهِ لان النفس افضل من الجسد والله بشئونهِ وخلاصهِ كفيل

المعلم الياس ادّه الشاعر

بقلم الاب لويس شيخو اليسوعي

ذكا في زماننا زرع العلوم ونما فرعها وامتدّت في كلّ انحاء بلادنا افنانها فتمكّن من جناها احداث مداوستنا فضلًا عن علمائنا. ومع هذا كلهِ لا يزال تاريخ وطننا ملقىً في زوايا النسيان لا تكاد تجد من الالوف واحدًا يفتهُ الشيء اليسير من احوالهِ. فترى الشبّان ينظمون الشعر ويُحسنون فروع الآداب اللسانيّة ويعدّدون اخبار الدول الاجنبيّة ويتباحثون في الاكتشافات الحديثة وان سألتهم عن احوال بلادهم القديمة شيئًا انقطعوا عن الجواب كأنّهم فُتُوا في عضدهم. وما لي اذكر التواريخ القديمة ونحن لا نجد من يُحكم معرفة تاريخنا الحديث والاخبار التي جرت قبل عهدنا بمئة سنة بل اقلّ من ذلك

فحسنًا لهذا الداء قد جمعنا وسوف نجمع ان شاء الله في مجلّتنا هذه كلّ ما من شأنهِ ان يزيدنا علمًا بالوطن العزيز

وقد اخترنا اليوم لموضوع بحثنا احد مشاهير الشعراء الذين نبغوا في اواخر العصر الماضي واوائل العصر الحالي وهو المعلّم الياس ادّه الذي يجهل اسمهُ كثيرٌ من حفدهِ انفسهم مع أنّهُ برزَ في زمانهِ وتقلّب في المناصب العليّة وأضحى فخرًا لأُسرة تُعدُّ اليوم من اشرف العيال المارونيّة في الثغر بل مجدًا لطائفتهِ جمعاء ولكلّ اهل الوطن

اما النبذة التاريخيّة التي جمعناها في هذه الاسطر الوجيزة فهي منقولة من مخطوطاتٍ عديدة مصونة في خزانة كتبنا الشرقيّة نخصُّ منها بالذكر تاريخ احمد باشا الجزّار لميخائيل لطفي الحمصي وتاريخ الامير حيدر الشهابيّ المتنون الغرر الحسان في تاريخ حوادث الزمان وديوان الشاعر الشهير نيقولا الترك. ثمّ نشكر للطف الخواجا الياس افندي ادّه وشبلي افندي ادّه ولدي ناصيف ادّه الذين افادانا امورًا كثيرة عن المعلّم الياس جدّهما

١

وُلد المعلّم الياس في قرية ادّه من اعمال جبيل سنة ١٧٤١ من ابوين مارونيين اشتهرا بالفضل. واسم ابيهِ الشيخ يوسف ادّه (١ نسبةً الى مسقط رأسهِ وكان رجلًا بارعًا بالكتابة مقتدرًا على العمل ذا نفوذ ورأي. امّا أمُّ المعلّم الياس فكان اسمها قمرة وهي ايضًا من بيت ادّه واخواها منصور وبطرس الآتي ذكرهما. كانت وفاتها في كانون الثاني من سنة ١٧٨٠

وكان بدء امر بيت ادّه انَّ الشيخ يوسف وكان من ذوي الخبرة في التدبير خدم الامير فخر الدين المعنيّ في آخر مدتهِ ثمَّ انتقل بعد وفاتهِ الى ديوان الامراء الشهابيين وكانت بيروت وقتئذٍ تحت حكمهم وتمتدّ ولايتهم الى جبيل فنال عندهم حظوةً ودُعي بلقب الشيخ. ثمَّ ارسل الى اخوَي امرأتهِ قمرة منصور وبطرس ادّه فادخلهما على الامراء الشهابيين فلمّا مثل الاخوان لدى الامراء سُرُّوا بحديثهما وعقلهما وتفرّسوا فيهما النجابة واستلمحوا منهما ملامح الذكاء واختصوهما بخدمتهم واجزلوا عليهما العطايا. فخدم منصور ادّه الامير منصور الشهابيّ والي بيروت والجبل فجعلهُ من خواصهِ واخذهُ معهُ الى بيروت واقامهُ على تدبير شؤونهِ واملاكهِ. وجعل اخاهُ بطرس رئيس الشرط. امّا المعلّم الياس فانهُ تدرّب على فنون الكتابة على ابيه فلمّا توفّي ابوهُ سنة ١٧٦٦ خلفهُ في رتبتهِ وكتب في ديوان الامير يوسف ابن الامير ملحم الشهابيّ

فلمّا كانت السنة ١٧٧٠ صارت ولاية بيروت والجبل الى الامير يوسف المذكور في حياة عمّهِ الامير منصور صحبهُ المعلم الياس الى بيروت وخدمهُ احسن خدمةٍ فجازاهُ الامير برتبة الكاخية. ويراد بالكاخية كبير الكتّاب ومتولّي تدبير الامور. وعظم امر اولاد ادّه وكان منصور معدودًا من اهل السيف والقلم واشتهر بطرس بالسيف اكثر منهُ بالقلم. امّا المعلّم الياس فبرع في الكتابة وبرَّز على من سبقهُ

ومن مساعيهم الحسنة في تلك الأيام بناء كنيسة مار جرجس لاهل ملّتهم. وكانت هذه الكنيسة قبل ذلك صغيرة فكبّروها على نفقتهم ونفقة مطران بيروت السيد يوسف فاضل. ومما يشهد على ذلك ما كُتب على المذبح الكبير: « قد تمَّ بناء هذا

١) وجاء في تاريخ الجزّار (ص ٣٦) انَّ اسم والده ابراهيم والصواب ما ذكرنا. وانّما ابراهيم كان اخًا للمعلم الياس كما تحقّقنا ذلك بخطّ المعلم الياس نفسهِ

الهيكل المبارك بسعي الشيخ منصور ادّه ». ولم يختص بهذا البناء الشيخ منصور وانّما كتب اسمهُ نيابةً عن اخيهِ بطرس وابن اخيه المعلّم الياس. وللشيخ منصور المذكور مآثر أُخرى حسنة وهو جدّ صاحب السعادة ميشال افندي ادّه مدير الامور الاجنبيّة حالًا. وكانت وفاتهُ في بيروت سنة ١٧٦٩ وقبرهُ الى يومنا في جانب هيكل كنيسة مار جرجس القديمة. وتوفّي اخوهُ بطرس في بيت شباب سنة ١٧٨٦. وكان من املاك بني ادّه في ذلك الزمان في بيروت قسمٌ من حي الدركة حيث بُنيت الكنيسة المسكوبيّة. وبجوارها باب يُدعى الى اليوم باب يوسف ادّه في سجلّات الحكومة

فبقي الياس في خدمة الامير يوسف الى ان حضر احد عمّال احمد باشا الجزّار موفدًا ليطلب منهُ ان ينقد لهُ دراهم ضربها على لبنان. فتعرّف بالمعلم الياس ادّه وتعجّب من حذاقتهِ في تدبير الامور فلم يزل يلحّ على الامير يوسف الشهابي حتى اذن لهُ ان يستخدم المعلّم الياس. فاستكتبهُ الى سنة ١٧٨٦

وفي تلك السنة تشدّد احمد باشا الجزّار والي مدينة عكّة على كتبة ديوانهِ وكان من جملتهم ميخائيل واخوهُ بطرس سكروج فقبض عليهما وحبسهما واذاقهما مرّ النكال. ثمّ عهد بكتابة ديوانهِ الى يوسف مارون اشهرًا ثمّ قتلهُ وطلب لهُ كاتبًا بارعًا فوقف على المعلّم الياس واستحسن خطّهُ وأعجب بضبطهِ للحسابات فاقامهُ مكان السكروج ويوسف مارون

وكان المعلم الياس رجلًا عاقلًا كثير الفهم محنّكًا بالامور محبوبًا من الخاصّ والعامّ. وكان اذا قدم بيروت يخرج جموع من اهل البلدة لاستقبالهِ. وكان علماء المسلمين يأنسون بحديثهِ وافردوا لهُ موضعًا بقرب جامع النورفرة ليتباحثوا معهُ بالعلوم ويتناشدوا الاشعار

ثمّ بقي المعلم الياس في خدمة الجزّار مدّةً الى ان خاف منهُ على نفسهِ. وذلك انّهُ اذ كان يومًا ما يصلّي في كنيسة عكّة هجم عليهِ قومٌ من الشرطة وساقوهُ الى ديوان الجزّار وهو يريد قتلهُ. فلم يزل المعلم الياس يسترضيهِ ويتلطّف لهُ حتى امّنهُ واهداهُ دواةً من الفضّة وقدّمهُ في ديوانهِ. لكنّ المعلم الياس رأى بعد ذلك من ظلم الجزّار واعمالهِ الفظيعة وخيانتهِ للدولة العليّة ما لم يكنهُ احتمالهُ فاخذ يترصّد لهُ فرصةً ليفلت من مخالب ذاك النمر القسور فكتب الى احد اصحابهِ الدروز من شيوخ بيت تلحوق في عيتات يلتمس منهُ ان يقبل في جوارهِ وحمايتهِ امرأتهُ وعيلتهُ ويخفيهم

عنده وانبأهُ بفراره من الجزّار . فلبّى الشيخ دعوتَهُ واحسن المعاملة الى غاية صديقه

ثمّ ان المعلم الياس ادّه طلب من الجزّار ان يأذن لهُ بان يتوجّه الى بيروت ويأتي بعياله الى عكّة . فسمح لهُ الجزّار بان يغيب شهرًا فقط واطلق سراحهُ سنة ١٧٨٧

فلمّا وصل المعلّم الياس الى بيروت اخذ يفكّر في امر النجاة فلم يرَ محلًا يأمن فيهِ على نفسهِ غير حلب . فقرّ هاربًا اليها . وقد جاء في تاريخ الجزّار(١ لميخائيل الحمصي (ص ٤٠) انّهُ هرب اوّلًا الى جبل الدروز وانّ الجزّار تأسّف عليهِ وجعل مكانهُ كاتبًا في ديوانهِ يوسف الترداحي الّا انّهُ خاف على نفسهِ وفرّ الى بلاد الفرنج

ودخل الياس ادّه حلب واختفى في الدار الاسقفيّة من طائفتهِ . وطابق وصولهُ اليها ارتقاء السيّد جبرائيل كنيدر مطرانًا على الموارنة فمدحهُ بهذه القصيدة وفيها يعتذر عن تركهِ الشعر منذ زمن مديد :

أمُنذرٌ ملكٌ قد جاء للبشرِ ... ام طالعُ السّعد وافى داحضَ الكدرِ
ام ضوء صُبحٍ يُلاشي ظلمةً دهمتْ ... ام البشيرُ اتى في اطيب الخبرِ
ام ذا طبيبٌ دنا يشفي لعلّتنا ... ام اقبل الحبرُ جبرائيل بالظفرِ
العالمُ العاملُ الفردُ الذي سطعت ... فيهِ فضائلُ ما جُمّعنَ في بشرِ
ومذ اضاءت بهِ الشهباء وافتخرت ... فيهِ ومن رشدهِ امست على حذرِ
فاصبحت جنّة بمّا افاض بها ... من حسن منطقهِ بالمعنى مبتكرِ
ومَن جلا لظلام الجهل حين دجا ... بالعزمِ والحزم شبه الصارم الذكرِ
حلّال مشكلةٍ كشّاف معضلةٍ ... نقّادُ عاطلةٍ بالذوق والنظرِ
القائلُ الفصلُ لم تخطئ روايتهُ ... والفاضلُ المخلصُ الصافي من الكدرِ
مذ اصبحتْ للورى اعتابُ سدّتهِ ... ملجا العُفاة ومنجى الخائف الحذرِ
يلقاكَ طلقَ المحيا وهو مبتسمٌ ... بمنطقٍ خلتهُ ابهى من الدُّررِ
لهُ مزايا كزهر الروض زاهية ... يفوحُ منها شذًا في البدو والحضرِ
خذها اليك وان كانت مقصّرةً ... فشأنُ مثلك ينفي العيبَ بالعذرِ
واستُر فاني تركتُ الشعر من زمنٍ ... لشاغلٍ عنهُ غنّى مُقلة الفكرِ
وان تكن من بليغ القول عاطلةً ... فقد تحلّت بعقد المدح كالدررِ

(١ راجع تاريخ الجزّار (ص ٣٦) من كتب مكتبتنا الشرقية

لا زلتَ تسمو على الأقران مرتديًا ثوب الفضائل في امنٍ من الخطرِ
ودم لنا ركن مجدٍ ما وشى قلمٌ رياضُ طرسٍ بحسنِ النعت كالزَّهرِ
ما صاح بالروض قريٌ وما سجعت حمائمُ الدوح في الآصال والبكرِ

وبقي المعلّم لياس في حلب بضع سنوات. ولهُ ابيات قالها في وصف بعض قصورها في بستان خلاص في خارج البلدة وتاريخها سنة ١٢٠٦ هجريّة (١٧٩٠م):

قصرٌ بدا روض الحبور اخاهُ نسبًا ومعمور السرور اباهُ
زرناهُ نجلي للصدا او نجتدي انسَ التهاني من رحابِ فناهُ
ولذاك لمَّا ان شكى قلبي الضنا ارَّختُ « ايوانُ الخلاصِ شفاهُ »

وقال ايضًا في حلب لمَّا سمع بقتل ديتري سَفر وكان رجلًا ظالمًا اضطهد الكاثوليكيين في بلاد الشام وسعى باستصفاء اموالهم وقتل رجالهم:

يا صاح إعلم ما جرى بهلاكِ ديتري سَفرْ
قد كان هذا المفتري ما دأبهُ الّا الضرَرْ
ينصب حبل خداعهِ ابدًا ليوقع للبشرْ
بمهالكٍ وخسائرٍ ومظالمٍ لا تنحصرْ
ما زال يسلك بالظلا مِ المدلهمّ على خطرْ
حتّى المهيمن قد اجا دَ بشنقهِ وبذا امرْ
وقضى بتاريخٍ لهُ يذهب الى وادي صقَرْ

(ستأتي البقيّة)

كتاب
تاريخ بيروت

لصالح بن يحيى (تابع لما سبق)

ذكر اخيهِ الامير عزّ الدين جواد ابن علم الدين سليمان

هو ثاني ولد علم الدين. كان حسن الشكل ذا ذكاء ومعرفة لم ينشأ في وقتهِ احدٌ مثلهُ في جمعهِ للصنائع وكتابتهِ المنسوبة. وقد رأينا من ذلك اشياء حسنة مُتقنة تدلُّ على فضلهِ كتب على الشيخ بهاء الدين محمود بن محمّد خطيب بعلبك شيخ البلاد